﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 84 - 85]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لَمّا اعتدَّ الكفّارُ بقوَّتِهم، واستهزؤوا برُسُلِهم، لم يُقبَلْ إيمانُهم عند نزول العذاب

لَمّا ثبتَ عنادُ الأُمم وغِلظتُهم، وقوَّتُهم في لَدَدِهم واشتدادِهم، ومقابلةُ رُسُلِهم بالاستهزاءِ والمناكفةِ عن قَبولِ الحقِّ في عبادةِ اللهِ وحدَه دون سواه؛ حاقَ بهمُ العذابُ الَّذي لا مفرَّ منه، قال تعالى مبيِّنًا لما أجملَ من الحَيْق مُسبِّبًا عنه، لافتًا القولَ إلى مظهرِ العظَمةِ ترهيبًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، أي: عايَنوا عذابَنا الشَّديدَ على ما له من مجامعِ العظَمة، ومعاقدِ العزِّ ونفوذِ الكلمة، كما ظهرَ في هذا البأسِ من غيرِ إشكالٍ ولا إلباس، وأكَّدوا ذلك، نافينَ لما كانوا فيه من الشِّرك، بقولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، وزاد تأكيدُهم بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾، ولَمّا كان الكفرُ بالغيبِ سببًا لعدمِ قبولِ الإيمانِ عند الشَّهادة، قال: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ يصحُّ، أو يُقبَلُ إيمانُهم عند الإلجاءِ والاضطرار، وهي سنَّةُ اللهِ الَّتي خلتْ في عبادِه الَّذين كذَّبوا رُسُلَه، وخسرَ الكافرونَ، وتحقَّقَ هلاكُهم حينَئذٍ، ولاتَ ساعةَ منْدَمٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَأْسَنَا﴾: بَئِسَ بُؤْسًا، فهو بائِسٌ، وقد بَؤُسَ يَبْؤُسُ، و﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: 165]، أي: شديد[2]، وبَئيسٌ اسمٌ وُضِعَ موضعَ المصدر، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروه، والعذاب، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفقرِ والحربِ أكثر، والبأسَ والبأساءَ في النِّكاية، كما في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132، 133.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 202.

تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النّساء: 84]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42][1]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أي: عايَنوا عذابَنا النّازلَ بهم[2].

2) ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: (سنن) سَنَّ يَسُنُّ سَنَنًا، والسَّنَنُ: الطَّريقة، وهي جمع سُنَّة، يقال: استقامَ فلانٌ على سَنَنٍ واحد، وتنحَّ عن سَنَنِ الطَّريقِ وسُنَّتِه وسِنَنِه، وسُنَّةُ الوجه: طريقتُه، وسُنَّةُ النَّبيِّ ﷺ: طريقتُه الَّتي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ اللهِ تعالى: طريقةُ حِكمتِه، وطريقة طاعته، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23][3]، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ [الأحزاب: 38] أي: حُكْمُ اللهِ[4].

3) ﴿خَلَتۡ﴾: (خلو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعرّي الشَّيءِ من الشَّيء، يقال: هو خِلْوٌ من كذا؛ إذا كان عِرْوًا منه، وخَلَتِ الدّارُ وغيرُها تَخْلو، والقرونُ الخاليةُ: المواضي، والخُلُوُّ يُستعمَلُ في الزَّمانِ والمكان، لكن لَمّا تُصوِّرَ في الزَّمانِ المضيُّ؛ فَسَّرَ أهلُ اللُّغة: خلا الزَّمان، بقولِهم: مضَى الزَّمانُ، وذهب، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: 144]، وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ [البقرة: 141][5]، وقولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾ [الفتح: 23]، أي: قد مضت[6].

4) ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾: (عبد) أصلانِ صحيحان، كأنَّهما متضادّان، والأوَّلُ من ذَيْنِكَ الأصلَيْن يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والآخرُ على شِدَّةٍ وغِلَظٍ. فالأوَّلُ: العَبدُ، وهو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أعْبُدٍ، وهمُ العباد، إلّا أنَّ العامَّةَ اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عبادِ اللهِ والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمَعْهم يشتقّونَ منه فعلًا، ولو اشتُقَّ؛ لقيل: عَبُدَ، أي: صارَ عبْدًا، وأقرَّ بالعبودَة، ولكنَّهُ أُميتَ الفعلُ، فلم يُستعمَل، وأمّا عَبَدَ يعبُدُ عبادةً؛ فلا يُقالُ إلّا لمَن يعبُدُ اللهَ تعالى، يقالُ منه: عَبَدَ يعبُدُ عبادةً، وتَعبَّدَ يتعبَّدُ تعبُّدًا، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، والعُبوديَّةُ:

(1) الرّاغب، المفردات: (بؤس)، والرّازي، مختار الصّحاح: (بأس).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 424، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 660.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (سنن).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 80.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، والرّاغب، المفردات: (خلا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 424.

إظهارُ التَّذلُّلِ، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، والنّاسُ كلُّهم عبادُ الله، بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخيرِ وبعضها بالاختيار، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو مُسترَقٌّ: عَبيد، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابدُ: عِباد، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى اللهِ - أعمُّ من العِباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: 29][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عند نزولِ العذابِ، لا ينفعُ النَّفس عندئذٍ الإيمان ولا المتاب

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّ الأممَ لمّا عاينَتْ وقوعَ العذاب بها؛ وحَّدوا اللهَ ﷻ، وكفروا بالطّاغوت، ولكنْ حيثُ لا تُقالُ العثرات، ولا تنفعُ المعذرة، وهذا كما قال فرعونُ حين أدركَه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: 90]، قال اللهُ ﷻ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91]، أي: فلم يقبلِ اللهُ منه؛ لأنَّه قد استجابَ لنبيِّه موسى عليه السلام دعاءه حين قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: 88]، وهكذا هنا، حَكمَ اللهُ في جميعِ مَن تابَ عند مُعاينةِ العذابِ أنَّه لا يُقْبَلُ، ويصيبُه الخُسرانُ بكُفرِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى حرف (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيانُ أنَّ الإيمان لا جدوى منه عقيبَ رؤيةِ العذاب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ للتَّعقيبِ في وجه، حيثُ جعلَ ما بعدها تابعًا لما قبلَها واقعًا عقيبَه، أي: جعل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ مترتِّبًا على قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الآية، تابعًا له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إلّا أنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٍ مشتملٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 80.

على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ اللّهِ تعالى العُظمَى من الكتابِ والرَّسولِ، فكأنَّه قيل: فكفروا، فلمّا رأوا بَأسَنا؛ آمنوا[1].

دلالة الأداة (لَمّا) في السّياق:

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، أفادَتْ معنَى التَّوقيت، وهو يثيرُ معنَى توقيتِ انتهاءِ ما قبلَها[2]، وفيه "حكى حالةَ بعضِهم، ممَّن آمن بعد تلبُّس العذاب بهم، فلم ينفعهم ذلك، وفي ذِكْر هذا حَضٌّ للعرب على المبادرة، وتخويفٌ من التَّأنّي لِئَلّا يدركَهم عذابٌ، لا تنفعهم توبةٌ بعد تلبُّسِه بهم"[3].

حـين رؤيـتـهـمُ العذابَ، أعلنوا إيـمـانَـهـم بعد النُّكران والغِلاب

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

عبَّرَتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ عنِ ارتباطٍ وثيقِ الصِّلةِ بما قبلَها، أي: دامَ دُعاءُ الرُّسُلِ إيّاهم، ودامَ تكذيبُ أُممِهم واستهزاؤهم بهم، إلى أن رَأوا بأسَنا، فلمّا رأوا بأسَنا؛ قالوا: آمنّا باللّه وحدَه، فكان هذا الإيمانُ في وقتٍ لا ينفعُ أصحابَه، وهو نزولُ العذابِ الشَّديدِ بهم[4].

الاسـتـمـرارُ في دعـوةِ الـرُّسُـلِ، مـع اسـتـمـرار تكذيبهم حتَّى مـجـيء وقـتِ العذاب

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿رَأَوْاْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿رَأَوْاْ﴾؛ دلالةً على تحقُّقِ رؤيتِهمُ العذابَ، أي: لَمّا شاهدوا العذابَ؛ لم ينفعْهم الإيمانُ؛ لأنَّه إيمانُ اضطرارٍ، وليس إيمانَ اختيار، واللّهُ تعالى لا يقبلُ الإيمانَ عند نزولِ عذابِه[5].

نُكْتَةُ إضافةِ البَأْسِ إلى ضميرِ العظَمة:

في إسنادِ البأسِ إلى ضميرِ العظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 31، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 572.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 345.

﴿بَأۡسَنَا﴾، زيادةٌ في التَّرهيبِ من عذابِ اللّه، وتحذيرٌ من الكفرِ باللّه، فإنَّ مصيرَ أهلِه إحاطةُ العذابِ بهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ على تأكيدِ نفيهم لما كانوا فيه من الشِّرك، وتحقُّقهم بالإيمانِ الَّذي نَبذوه من قَبْل[2].

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ للإلصاقِ المعنويِّ أوِ المصاحبة، أي: آمنّا إيمانًا بما يريدُه اللّهُ ويرضاه من الإيمان، أو: مصاحبًا للإيمان باللّه، أي: قائمًا على أساسِ الإيمانِ الحقِّ الَّذي تأمرُنا به الرُّسُل، لا كما هم فيه من قبل[3].

آمنوا إيمانًا ملصقًا المأمورينَ به بالإيمان

بلاغةُ الالتفات في الضَّمائر:

لَمّا ثبتَ عنادُ الأُمَم وغِلظتُهم واعتدادُهم بقوَّتِهم فرحًا وبطرًا؛ قال تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، ثمَّ بيَّن جهلَهم وذُلَّهم؛ لَمّا عاينوا عذابَ اللّه، فجاء البيانُ لما أُجمِلَ من الحَيْق مسبَّبًا عنه، لافتًا القولَ إلى مظهرِ العظَمة ترهيبًا، فقال بصيغةِ الغائب: ﴿رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾، أي: شاهدوا بوارقَ العذابِ الشَّديد، ثمَّ لَمّا جاءَ بيانُ حالِهم عند نزولِ العذابِ - لا محالة - ذكرَ النَّظمُ الكريمُ موقفَهم حينَئذٍ، فقال بصيغةِ المتكلِّم عنهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾، وأكَّدَه بقولهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾؛ لأنَّنا علِمْنا أنَّه لا يُغني من دونِ اللّهِ شيءٌ[4].

فرحوا بقوَّتهم؛ فلمّا رأوُا العذابَ؛ أعلنوا إيمانَهم، ونَفَوا كفرَهم

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439، 440، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَحْدَهُۥ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿وَحْدَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ تأكيدًا للإيمانِ الجازمِ باللهِ وتوحيده، ونفيًا لما كانوا فيه من الشِّرك[1].

معنَى الواو في قوله: ﴿وَكَفَرْنَا﴾:

زيادةُ التَّصريحِ بكُفرِهم بما أشركوا به وقتَ رؤيةِ العذاب

دلَّتِ الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا﴾ على انحلالِ عُرَى ما كانوا به يتفاخرون، ووَهْيِ قواهم الَّتي كانوا بها يتعالون؛ لمّا رأوا بَأسَ الله، بزيادةِ التَّصريحِ في قولِهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ بعد قولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ لأنَّهم علموا أنَّه لا يُغني من دونِ اللهِ شيء[2].

بلاغةُ الطِّباقِ في الجمعِ بين الإيمانِ والكفر:

الكفرُ بالمُنعِمِ لا يمحوه الإيمانُ وقتَ نزولِ العذاب

صرَّحوا بالإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، مترتِّبًا على قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الَّذي جاءَ مترتِّبًا على قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الآية، تابعًا له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إلّا أنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٌ مشتمِلٌ على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ اللهِ تعالى العُظمَى من الكتابِ والرَّسول، فكأنَّه قيل: فكفروا، فلمّا رأوا بأسنا؛ آمنوا، ثمَّ جاءَ العطفُ على ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ دلالةً على عدمِ نفعِ إيمانِهم مع تأكيدِهم بقولِهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّه إيمانُ اضطرارٍ وقتَ نزولِ العذاب، لا إيمانَ اختيار[3].

دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَا كُنَّا﴾:

عبادة الأصنام باطلة، تنتهي إلى النَّدم والحسرة

الباءُ في ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ للإلصاق المعنويِّ، أي: ألصَقْنا كُفرَنا بما كنّا به مشركين، ويجوزُ أن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 344، والمطعنيّ، خصائص التَّعبير القرآني: 2/ 416، 417.

تكون للتَّعديَة، بمعنى: للمصاحبة، أي: كفَرْنا مصاحبينَ الَّذي كنّا بسببِه مشركينَ من عبادةِ الأصنامِ وغيرِها[1].

معنَى (ما) وموقعُ الجملةِ بعدَها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ اسمٌ موصولٍ بمعنى (الَّذي)، أي: وكفرْنا بالَّذي كنّا به مشركين، وفيها معنى المبالغة في تبرُّئهم من شِركِهم لمّـا نزل بهمُ العذاب، وجملةُ: ﴿كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب[2].

تـبرُّؤ مشركي الأُمـم من شركِهم لمّا رأوا عذابَ الله واقعًا بيقين

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكَوْن ﴿كُنَّا﴾:

في دخولِ فعلِ الكَونِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ ما مضى من كفرِهم، إنَّما كان جِبلَّةً وطبعًا، وهذا تعليلٌ لكفرِهم لإعذارِهم مضطرّين لمّا رأوا عذابَ اللّه[3].

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾:

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ للسَّببيَّة، أي: وما كنّا بسببِه مشركينَ من الأصنامِ أو سائرِ الآلهةِ الباطلة[4]، والجارُّ والمجرور متعلِّقان باسم الفاعل ﴿مُشْرِكِينَ﴾.

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

في تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ تأكيدُ انحلالِ عُراهم ووَهْيِ قواهم، بزيادةِ التَّصريحِ ببراءتِهم من شِركِهمُ الَّذي كانوا عليه[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ في السّياق المبين:

الشِّركةُ والمشاركةُ: خَلْطُ الملكَيْن، وقيل: هو أن يوجَدَ لاثنَيْن

شِـرْكُ الأُمَـمِ في عـبـادةِ الـلـهِ، ثـابـتٌ لـهـم في عبادتهم سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 525.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 131.

فصاعدًا، عَيْنًا كان ذلك الشَّيءُ أو معنًى، يُقالُ: شَرَكْتُه، وشارَكْتُه، وتشاركوا، واشتركوا، وأشْركتُه في كذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: 32][1]، وقد دلَّ ذلك على أنَّ الأُممَ أشركوا باللّه، فجعلوا معه تعالى غيرَه في العبادة، من الأصنام أو سائرِ آلهتِهم الباطلة[2]، وجاءت كلمةُ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ اسمًا ووسمًا لهم بإشراكِهم مع اللّه، وخبرًا عن صفةِ الإشراكِ الثّابتةِ لهم الَّتي تبرَّؤوا منها لَمّا رأوا بأسَ اللّه.

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ مع البيانِ والتَّفسير، بعد قولِهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾؛ وذلك أنَّ تصريحهم بالإيمانِ في عدمِ وقتِ الإعذارِ، لا ينفعُ صاحبَه، حيثُ جاءَ بعد معاينةِ العذاب، فكانَ قولُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾ تابعًا لإيمانهم؛ لَمّا رأوا بأسَنا[3].

لا ينفعُ الإيمانُ عـقـيـبَ رؤيـةِ العذاب والهوان

نُكْتَةُ التَّخفيفِ في الفعل ﴿يَكُ﴾:

وقع التَّخفيفُ في الفعل ﴿يَكُ﴾ بحذفِ النّون جريًا على مفهوم المخالفة، فكما أنَّ زيادةَ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، فكذلك فإنَّ نقصَ المبنَى يدلُّ على نقصِ المعنَى، وذلك أنَّ المقامَ مقامُ إعلام وبيانٍ بعدمِ فائدةِ الإيمانِ ونفعِه وقتَ نزولِ العذاب، فهو مقامُ اختصارٍ لا مقامُ إطناب[4].

من لـم ينتفع بإيمانه هجره كل شيء

دلالةُ المضارع المنفي في ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع ﴿يَكُ﴾ و﴿يَنفَعُهُمْ﴾؛ لأنَّه بمعنَى: لم يصحَّ، ولم يَستَقِمْ، فدُخولُ حرفِ النَّفي على الكون، لا

لا يُقبَلُ على وجهِ الاستمرارِ إيمانُ الاضطرار

(1) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 344.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 440، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 277، 278.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.

على النَّفي؛ لأنَّه يؤدّي إلى نَفْيِ الصِّحَّة، أي: لم يصحَّ، ولم يستقم، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: 35][1]، فهُم لم يكونوا لفواتِ الوقتِ مؤمنين بما طُلِبَ منهم، فلم يتجدَّدْ لهم نفعُ إيمانِهم؛ لأنَّه إيمانُ إلجاءٍ واضطرار، لا إيمانُ طواعيةٍ واختيار[2].

نُكْتَةُ العدول إلى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾:

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ القول: (فَلَم ينفعْهُم) إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾؛ لدَلالةِ فعلِ الكَونِ على أنَّ خبرَه مُقرَّرُ الثُّبوتِ لاسمه، فلمّا أُريدَ نفيُ ثبوتِ النَّفعِ إيّاهم بعد فواتِ وقتِه؛ اجتلبَ كذلك نفيَ فعلِ الكونِ الَّذي خبرُه ﴿يَنفَعُهُمْ﴾، والمعنى: أنَّ الإيمانَ بعد رؤيةِ بوارقِ العذابِ لا يُفيدُ صاحبَه[3].

تقريرُ نفيِ فعلِ الكَونِ، تقريرٌ لنفيِ ثبوتِ النَّفع

نُكْتَةُ إضافةِ الإيمانِ إلى ضميرهم ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾:

في إضافةِ الإيمانِ إلى ضميرهم، في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ إيحاءٌ على أنَّه إيمانٌ اضطراريٌّ لا اختياريٌّ، بسبب معاينةِ العذابِ، فنُسِبَ إليهم تعبيرًا عن حقيقةِ إيمانِهم في ذاك الوقت، وهذه الحقيقةُ لا يعلمُها على وجهِ اليقين إلّا اللّٰهُ تعالى، ولذلك لم ينفعْهم إيمانُهم، ولم يُقبَل[4].

حالُ إيمانِهم قائمٌ على الإلجاءِ لا الاختيار

دلالة ﴿لَمَّا﴾ في السّياق المُحكم:

قولُه: ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، يفيدُ معنَى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّة، وهو الوقتُ الَّذي يُعايَنُ فيه نزولُ العذاب؛ لأنَّه في ذلك الوقت يصيرُ المرءُ مُلجَأً إلى الإيمان، فذلك الإيمانُ لا ينفعُ صاحبَه؛ لأنَّه لا يكون إيمانًا مختارًا بل مضطرًّا[5].

وقتُ معاينةِ العذابِ لا يُتاح قَبولُ الإيمان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 277، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿رَأَوْاْ﴾:

تحقُّق رؤية العذاب صدمةٌ تصيبُ المشركين بالخيبة

التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿رَأَوْاْ﴾؛ للدَّلالةِ على نزولِ العذاب، وتحقُّقِ رؤيتِهم له[1]، وأنَّ إيمانَهم عند رؤية العذابِ لا طائلَ منه؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتحقَّقُ، ولا يُتصوَّرُ إلّا مع الغيب، وأمّا عند الشَّهادة؛ فقد كشفت سريرتُه، على أنَّه قد فاتت حقيقته[2].

نُكْتَةُ إضافةِ البأسِ إلى ضميرِ العظَمة:

التَّرهيبُ والتَّحذيرُ من عذابِ اللهِ، والتَّبصُّر بأسباب حصوله

في إضافةِ البأس إلى ضميرِ العظَمةِ، في قولِه تعالى: ﴿بَأۡسَنَاۖ﴾ زيادةٌ في التَّرهيب، وإيحاءٌ بأنَّ بأسَ اللهِ إذا جاءَ؛ لا يُؤخَّرُ عن القومِ المجرمين، وفيه تحذيرٌ للأُمَمِ من محادَّةِ اللهِ ورُسُلِه، واتِّخاذِ الهوَى إلهًا من دون اللهِ في عبادةِ ما لا يضرُّ، ولا ينفع[3].

غرضُ إعادةِ رؤيةِ البأس:

الإيمانُ لا ينفعُ صاحبَه حينَ مشاهدةِ العذاب

لَمّا رأى القومُ بأسَ اللهِ؛ علموا أنَّه العذابُ الَّذي أُنذِروه، وفُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾؛ لبيانِ المقصدِ المراد، وهو أنَّ مشاهدةَ العذابِ لا ينفعُ معها الإيمان؛ لأنَّ اللهَ لا يقبلُ الإيمانَ عند نزولِ عذابِه.

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾:

لا ينفعُ الكافرَ الإيمانُ ولا النَّدمُ، وقتَ نزولِ العذاب المؤلم

جملةُ: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وهي في محلِّ نصب حالٍ من الضَّمير المتَّصل بـ ﴿يَنفَعُهُمۡ﴾[4]، جوابًا لسؤال مَن يسألُ: لماذا لم ينفعهمُ الإيمانُ، وقد آمنوا؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك تقديرٌ قدَّرَه اللهُ للأُمم السّالفة، أعلمَهم به، وشَرَطَه عليهم، فهي قديمةٌ في عبادِه، لا ينفعُ الكافرَ الإيمانُ إلّا قبلَ ظهورِ البأس، ولم يَستثْنِ من ذلك إلّا قومَ يونُسَ، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(4) قباوة، المفصل، ص: 1685.

إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 98][1].

نوعُ الإضافةِ في قولِه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾:

إضافةُ اسمِ المصدرِ إلى فاعلِه، والتَّحذيرُ من العذاب

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ من باب إضافةِ اسمِ المصدرِ المؤكِّدِ إلى فاعلِه، والتَّقديرُ: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، فانتصابُ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ على النِّيابة عنِ المفعولِ المطلق؛ لأنَّ سُنَّةَ اسْمُ مصدرِ السَّنِّ، وهو آتٍ بدلًا من فعلِه، فالجملةُ في ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ جوابٌ لسؤالِ مَنْ يسأل، لماذا لم ينفعْهمُ الإيمانُ، وقد آمنوا؟[2] ويجوزُ انتصابُ ﴿سُنَّتَ﴾ على التَّحذير، أي: احذَروا سُنَّةَ اللهِ الَّتي قد خلَت في عبادِه[3].

بلاغةُ الالتفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبة:

الإمهالُ في زمنِ الاختيار، ولا نفعَ لذلك في زمن الاضطرار

لَمّا أظهرَ النَّظمُ الكريمُ ما فيه زيادةٌ في التَّرهيب، في قوله تعالى: ﴿بَأۡسَنَاۖ﴾ بأسلوبِ التَّكلُّم بعد الغَيْبة، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾، مبيِّنًا أنَّ الإيمانَ لا ينفعُ وقتَ الإلجاءِ والاضطرار، ثمَّ عادَ لأسلوبِ الغَيْبة في قوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾، أي: سنَّةَ اللهِ الملكِ الأعظمِ المذكورِ باسمِه الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ تحقيقًا لما هو مقرَّرٌ في سنَّتِه تعالى، أنَّ الإيمانَ بعد كشفِ الغطاءِ لا ينفعُ صاحبَه، بل سيهلِكُ، ويخسرُ بكفرِه، وفي هذا الالتفاتِ دلالةٌ على تمامِ قدرتِه تعالى، وأنَّ سنَّتَه ماضيةٌ مع مَن هُيِّئت له أسبابُ الهدايةِ، فكفر باختيارٍ ثمَّ آمنَ – حالَ نزولِ العذاب – باضطرار، وهذا عَيْنُ الخُسران[4].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ وصلتِه:

التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ بالاسمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 222.
(3) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 504.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

الموصولِ وصلتِه، بغرضِ تخويفِ اللّهِ المشركينَ من الانزلاقِ في مَهواةِ الأوَّلين، بأنَّ سُنَّةَ اللّهِ في عبادِه الإمهالُ، ثمَّ المؤاخذة، ثمَّ الخسارةُ الفادِحَة، لا ينفعُ في ردِّها إيمانُ المؤمنين، أو شفاعةُ الشّافعين، فكان في ذلك كلمةٌ جامعةٌ في ختامِ الآيةِ للغَرَضِ المبين[1].

تخويفُ المشركين ممّا حلَّ بالمكذِّبين الأوَّلين، مسلكٌ في الوعظ مبين

نكتةُ التَّأكيدِ بحرف التَّحقيق ﴿قَدْ﴾:

التَّأكيدُ بـ ﴿قَدْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ تحقيقًا لإمضاءِ سنَّةِ اللّهِ في الأُمم المُكذِّبةِ إلى يوم الدّين، في إهلاكِ مَن كفرَ باللّهِ مع إيرادِ المعجزاتِ والدَّلائلِ الواضحة، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ هذه السُّنَّةَ، هي من اللّهِ الملكِ الأعظمِ المحيطِ علمًا وقدرةً في الدُّهورِ السّابقةِ واللّاحقة[2].

تحقيقُ سُنَّةِ اللهِ على مرِّ الدُّهورِ أمرٌ واقعٌ لا محالة

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَتْ﴾ في السّياق:

الخُلُوُّ: تعرّي الشَّيءِ من الشَّيء، وخلَتِ الدّارُ وغيرُها تخلو، أي: هي خِلْوٌ من أهلِها، والخُلُوُّ يُستعمَلُ في الزَّمانِ والمكان، لكن لَمّا تُصوِّرَ في الزَّمانِ المضيِّ؛ جاءَ قولُهم: خلا الزَّمانُ، بمعنَى: مضَى، وذهب[3]، ولَمّا كانتِ القُرونُ الخاليةُ بمعنَى القرونِ الماضية؛ كان قولُه تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾، أي: قد مضت، أي: في الأمم السّابقة، ولَمّا جاءتْ كلمةُ ﴿خَلَتْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ دلَّتْ على تحقُّقِ هذه السُّنَّةِ في العبادِ، سَلَفِهم وخَلَفِهم، وهي عدمُ نفعِ الإيمانِ وقتَ نزولِ العذاب؛ لأنَّه إيمانُ اضْطرارٍ لا اخْتيار[4].

تحقُّقُ سُنَّةِ اللهِ الماضيةِ في العبادِ إلى يومِ المعاد

دلالةُ الظَّرفيَّةِ المجازيَّة:

جاء لفظُ: ﴿فِي عِبَادِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ

السُّنَّةُ الماضيةُ في العبادِ تعذيبُ المارقين واستئصالُهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 224.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلو)، والرّاغب، المفردات: (خلا).
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 31.

خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ للظَّرفيَّةِ المجازيَّة، أي: سُنَّةَ اللّهِ الَّتي قد مضتْ في زمنِ عبادِه السّالفين - الَّذين ضلّوا طريقَ الحقِّ، فأرسلَ اللّهُ إليهمُ الرُّسُلَ إرشادًا للحقِّ وإعزازًا بهم - هي تعذيبُ من كذَّبهم، واستهانَ بهم، باستئصالِهم وقَطْعِ نَسْلِهم[1].

سرُّ الإضافةِ إلى ضميرِ العظَمة في ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

تشريفُ العبادِ بإضافتِهم إلى اللّه، يستلزم إيمانَهم لا كُفرانَهم

إضافةُ العبادِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾؛ لبيانِ أنَّ عدمَ قَبولِ الإيمانِ حالَ اليَأْسِ سُنَّةُ اللّهِ المطَّردةُ في كلِّ الأُمم، وهم عبادُه الَّذين شرَّفَهمُ اللّهُ بالعبوديَّةِ له، ولذلك أرسلَ إليهمُ الرُّسُلَ إرشادًا لطريقِ الحقِّ، يُعزُّ مَنْ يتَّبعهم، ويعذِّبُ مَنْ يُكذِّبُهم[2].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَخَسِرَ﴾:

المقصدُ الأساسُ الختْمُ للكافرينَ بالخُسران المبين

جاءتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ﴾ عطفًا على ما تقدَّمَها، وكانت مع جملتِها في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كالفَذْلكةِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، وبذلك آذنت بانتهاءِ الغَرَضِ من السّورة، وأعطتِ النَّتيجةَ المتوخّاةَ من السّياقِ الَّذي خُتِمَتْ به[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الخسارة:

خسارةُ الإيمانِ أعظمُ من خسارةِ الأموالِ والأعيان

استُعيرَ فعلُ الخسارةِ الَّتي تكونُ في الأمورِ الماديَّةِ كالبيعِ والشِّراءِ، إلى الخسارةِ المعنويَّةِ في أعظمِ قضيَّة، وهي قضيَّةُ الإيمانِ والكُفرِ؛ ليَدلَّ على عِظَمِ تلك الخسارةِ الحقيقيَّة، وغايةِ تمكُّنِها من صاحبِها، فهي لا تُعوَّضُ بالمالِ أو غيرِه من أمورِ المعاش؛ لأنَّ الخسارة الحقيقيَّةَ، تكونُ في يومِ المَعاد[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 223.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ المكان:

بيانُ مآلِ الخسران في بُعْد ما كانوا عليه من الكفران

استُعمِلَ قولُه: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان البعيد؛ للدَّلالةِ على بُعدِ ما هم فيه من الكفر؛ إذ آمنوا؛ لَمّا رَأوا عذابَ اللهِ نازلًا بساحتِهم - لا محالة - فلم ينتفعوا بالإيمانِ في حالِ الاضطرار، ولو أنَّهم آمنوا في حالِ الاختيارِ والإمهالِ؛ لانتفعوا[1]، ولكن غلبت عليهم شقوتُهم، فلم يستبينوا الحقَّ في أوانه، وأضاعوا فرصة التَّوبة المتاحة، يومَ جاءهم الرُّسل بالبلاغ، ونزل عليهم الوحيُ بالهدى والتَّوحيد، فأنكروا الوحيَ، وانشغلوا عن الحقِّ الصَّميم، بالباطل الذَّميم، فآبوا إلى النَّدم والحسرة.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن الزَّمانِ بالمكان:

الخسرانُ وقتَ رؤيةِ البأس، وانقطاعِ الرَّجاء في التَّوبة

في قولِه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، استُعيرَ ﴿هُنَالِكَ﴾، وهو اسمُ إشارةٍ إلى المكان؛ للإشارةِ إلى الزَّمان، أي: وخَسِروا وقتَ رؤيتِهم بأسَنا؛ إذِ انقضتْ حياتُهم وسُلطانُهم، وصاروا إلى ترقُّبِ عذابٍ خالدٍ مُستقبَل[2]، وذلك أنَّه لَمّا كان المكانُ لا ينفكُّ عنِ الزَّمان؛ استُعيرَ ظرفُه له، وليدُلَّ على غايةِ التَّمكُّن، وعظيمِ الشَّأنِ وخُطورتِه[3].

نُكْتَةُ تقديمِ الإشارةِ على الفاعل:

تَحقُّقُ خسارةِ الكافرين، أمرٌ لا مَفرَّ من وقوعه

في تقديمِ الإشارةِ على الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فلم يقل: (وخَسِرَ الكافرونَ هنالك)؛ للدَّلالةِ على هلاكِ الكافرين، وتحقُّقِ أنَّهم خسِروا - لا محالةَ - في ذلك الوقتِ العظيمِ الشَّأن، بما كانَ فيه، وكانَ من العذابِ الشَّديدِ بعد الكُفرِ الشَّديد[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 536.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

(أل) التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للعهد، أي: العريقون في هذا الوصف، فلا انفكاكَ بينَهم وبينَه[1]، فهو صبغتُهمُ الملازمةُ لهم.

نُكْتَةُ العدولِ عن لفظِ (الشِّركِ) إلى (الكفر):

إعـذارُ مشركي قـريـش، وإعـطـاؤهـم فرصةً للعَودة إلى الحقِّ

في العدولِ عن ضميرِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ [غافر: 21] إلى الاسمِ الظّاهر، وهو ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ سببَ خسارتِهم هو الكفرُ باللّٰه، وذلك إعذارٌ للمشركينَ من قريش، حتَّى لا يحلَّ بهم ما حلَّ بسالفِهم من المكذِّبين، وإمهالٌ لهم، لعلَّهم يرعوونَ، ويعودونَ إلى الرَّشاد[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العذاب والبأس:

العذابُ: هو الألمُ المستمرُّ والإيجاعُ الشَّديد، وأصلُ الكلمةِ: الاستمرار، ومنه يقال: ماءٌ عذبٌ لاستمرائه في الحَلق، ويقال: عذَّبَه تعذيبًا، أكثرَ حبسَه في العذاب، قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النَّمل: 21][3].

العذابُ، البأسُ مـع الألـمِ المستمرِّ

والبَأسُ والبُؤسُ والبَأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروه، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفقرِ والحربِ أكثر، والبَأس والبَأساء في النِّكاية، نحو: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]، والبأسُ يجري على العِدَّةِ من السِّلاح وغيرِها، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: 25]، ويُستعمَلُ في موضعِ الخوْفِ مجازًا، فيُقال: لا بأسَ عليك، ولا بأسَ في هذا الفعل، أي: لا كراهةَ فيه[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 133.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 223.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 354، والرّاغب، المفردات: (عذب).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 89، والرّاغب، المفردات: (بؤس).

العباد والعبيد:

العبيدُ أعمُّ من العباد، وكلاهما لفظ قرآنيٌّ

العبدُ: هو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أعْبُد، وهمُ العباد، والعامَّةُ يفرِّقون ما بين عبادِ اللّهِ والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، وعبَدَ يعبُدُ عبادةً، فلا يُقالُ إلّا لمن يعبُدُ اللّهَ تعالى، ويقال للمشركين: عَبَدَةُ الطّاغوتِ والأوثان، وللمسلمين عُبّادٌ يعبُدونَ اللّهَ تعالى، وهم عبادُ الرَّحمنِ الَّذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرقان: 63]، وعبادُ اللّه: الملائكةُ والإنسُ والجنُّ، بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، لكنَّ بعضَها بالتَّسخيرِ وبعضَها بالاختيار، وجمعُ العَبدِ - الَّذي هو مُسترَقٌّ - عَبيد، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابدُ: عباد، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى اللّهِ - أعمُّ من العباد، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29][1].

الكُفْر والشِّرك:

الكُفرُ جُحودٌ في الدّين، وجُحودٌ في النِّعمة، والشِّركُ أكبرُ وأصغرُ

الكفرُ: سَترُ الشَّيء، ووُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ لسَترِه الأشخاص، والزُّرّاعُ لسَترهمُ البَذرَ في الأرض، وكفرُ النِّعمة وكُفرانُها: سَترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، والكفرُ ضربان: كفرٌ بالدّين، وكفرٌ بالنِّعمة، وأعظمُ الكفرِ: جُحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعة أو النُّبوَّة، والكُفرانُ في جحودِ النِّعمةِ أكثرُ استعمالًا، والكُفرُ في الدّين أكثر، والكُفورُ فيهما جميعًا، قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99]، والكافرُ على الإطلاقِ: متعارَفٌ فيمَنْ يَجْحَدُ الوحدانيَّةَ، أو النُّبوَّةَ، أو الشَّريعةَ، أو ثلاثتَها[2].

والشِّركُ في الدّين على ضربَيْن، أحدهما: الشِّركُ العظيمُ: وهو إثباتُ شريكٍ لله تعالى، يقال: أشركَ فلانٌ باللّه، وذلك أعظمُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 350.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 454، 455، والرّاغب، المفردات: (كفر).

الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 48]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]. والثّاني: الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّهِ معه في بعضِ الأمور، وهو الرّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190]، والشِّركُ خَصلةٌ واحدة، وهو إيجادُ إلهٍ مع اللّهِ، أو دونَ اللّه، ثمَّ كَثُرَ حتَّى قيل لكلِّ كُفرٍ شِركٌ على وجهِ التَّعظيم له، والمبالغةِ في صفته، ونقيضُ الكُفرِ الإيمانُ، ونقيضُ الشِّركِ في الحقيقةِ الإخلاصُ، ثمَّ لمّا استُعمِلَ في كلِّ كُفرٍ؛ صارَ نقيضه الإيمان[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 455، والرّاغب، المفردات: (شرك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"